❁ التربية الإسلامية في منظومتنا التربوية بين الواقع والمرتجى

✍ أ. سعيد معول.

إطار بوزارة التربية الوطنية

أحسب أني لست هنا مدعوا لتبرير مكانة التربية الإسلامية في منظومتنا التربوية، والحيز الذي ينبغي أن تشغله في مناهج التعليم عندنا وما سطر فيها من غايات ومقاصد وأهداف، وأحسب كذلك أني لست مدعوا للرد على الدعوات المجانية التي نسمعها هنا وهناك والداعية إلى إلغاء التربية الإسلامية وإخراجها من مناهجها لاتهامهم إياها بإعاقة المدرسة عن التقدم والتفتح والعصرنة، ولست مطالبا كذلك بإثبات خطأ بعض المتعلمين والمتعالمين الذين يرون أن الإسلام دين لا يصلح لبناء نظام تربوي يلائم مقتضيات هذا العصر وتوجيهاته المستقبلية، اللهم إلا إذا كانت المستقبلية أو الغدية كما يسميها البعض –تعني التمكين للرذائل ومحاربة الفضائل في حين أن الإسلام يرى الرذائل رذائل إلى يوم القيامة ويرى الفضائل فضائل دون الخضوع لاعتبارات الزمان والمكان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها كذلك.

إن منظومة الأفكار القائمة أصلا عل أساس من التصورات الخاطئة عن الإسلام الموجودة عند هؤلاء الذين يعتقدون بأن الإسلام هيأ لهم كل شيء وأن أسلافهم قد قاموا بدلهم بإعداد كل الأشياء وتهيئتها وما عليهم إلا التزود بما يشاءون منها، أو الموجودة عند أولئك الذين ينظرون إلى الدين في الإسلام من نفس المنطلقات الفلسفية التي ينظر منها إلى الدين في الغرب هي التي جعلت كثيرا من الناس عندنا يقترحون بأن يعامل الإسلام في هذا الميدان كما يعامل "الدين" في الغرب وذلك بأن تخصص له زاوية صغيرة في ناحية من نواحي المدرسة أو في مؤسسة ضيقة من مؤسسات المجتمع و لا يسمح له يتخطى عتبتها، ويدعون إلى ترك ما عدا ذلك أو

ما وراءه في تعليم الإنسان تعليما علميا واجتماعيا وإنسانيا لموضوعات العلوم الأخرى...

نعم إن الفصل بين الدين والعلم يعكس مفهوم "الدين" في تراث الحضارة الغربية، ولكنه لا يتصور مع تعاليم الإسلام الخالدة إذ هو منحى يتناقض مع تعاليم الإسلام الخالدة وآيات قرآنه البينات.إن هذا المنحى أو هذا التوجه في تصور "الدين" في الإسلام يعتبر من منظور النصوص الأصلية له إنكارا للتوحيد كما بينه القرآن، وتفتيتا لوحدة المعرفة كما بينتها النصوص الأصلية للإسلام، وتعطيلا لدور قدرات الإنسان العقلية ووظيفتها في استكشاف التوحيد الذي هو الحق الذي أقام الله عليه السموات والأرض وفي تعميق الإيمان إلى درجة اليقين الذي ينتفي معه الظن أو الشك الذي يشكل ضبابية تمنع إشراقة العقل من إرسال أشعتها لإستكشاف المعرفة بمفهومها الواسع، ونفيا لدور علوم الطبيعة التي سخرها الله تعالى للإنسان في كمال الإيمان والوصول إلى اليقين، ومسخا لدور العلوم الإنسانية والاجتماعية في تطوير البيئة الملائمة لفطرة الإنسان والتي تسمح بنموه نموا سليما ويتوجه إلى الحق بالحق نحو الكمال البشرى الذي يبتغيه الإسلام له ضمانا لسعادته الأبدية في هذه الحياة الدنيا وفي تلك الحياة الأخرى.

نعم، إن النظام التعليمي في الغرب نشأ في حضارة تفصل بين الدين والعلم وتجزىء المعرفة بل ولا تعتبرها –أي المعرفة– كأساس للإيمان الكامل، ولا تنظر إلى العلوم الطبيعية والاجتماعية والإنسانية كشرط من شروط كمال الإيمان، بل وقد حاربت هذه الحضارة أو هذا "الدين" في مراحل كثيرة من تاريخه العلم وأنكرت عليه اكتشافاته وسجنت حقائقه واضطهدت أصحابه، وقد كانت هذه

الحضارة –إذن– منطقية مع نفسها حين أقدمت على فصل هذا "الدين"الذي كان عائقا أمام تطورها عن الحياة ومن ثم كان هذا الفصل من مقتضيات طبيعة هذا الدين ومستلزماتها.

ولكن في الإسلام لا يمكن الفصل بين الدين وسائر العلوم والمعارف إذ هو يدعو أتباعه إلى توظيف كل ذلك للوصول إلى الإيمان الذي يقوم على الحق وإلى اليقين الذي لا يشوبه شك.

﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق﴾[1].

﴿قل انظروا ماذا في السموات والأرض﴾[2].

قد يقول قائل أو ينقد ناقد أو قد ينتقد منتقد فيقول مالكم تشتغلون بنقد الحضارة الغربية بل تتصّنعون انتقادها وكأن ما عندنا أصبح نموذجا يجب الإقتداء به؟ وللإجابة على ذلك فإنني أقول بأن منظمة الأفكار عندنا ونسق التفكير، يحتاج إلى تجديد وتلقيح لأن عالم الأفكار والمعاني يخضع لنفس السنن التي يخضع لها عالم الأشياء الذي يقتضي الصيانة الدائمة والتجديد المستمر والتلقيح الكفيل بضمان دوام حيويته وبقائه للوصول إلى هدفه ومبتغاه .

وإنه بهذا التلقيح –الذي لا شك أنه يستوجب الاختصاص الكفء– سنتمكن من أن نصل بسهولة إلى رسم طريق توصل إلى تحقيق بديل تربوي مصنوع من طينتنا دون أن نمر بالأزمة الخلقية والاجتماعية والاقتصادية التي تنهش اليوم المجتمعات الغربية، هذا النمط التربوي البديل الذي سيسير بنا في الطريق الصحيح لتحقيق إنماء إنساني حقيقي وشامل في إطار النصوص الثابتة في الإسلام وفي كنف الجوانب الإيجابية من تجاربنا التراثية المختلفة المتنوعة.

وبذلك سنجنب أنفسنا الوقوع في نفس المأزق الذي وقع فيه الغرب بإختياره النمط التربوي السائد عنده حاليا، علما أننا إذا لم نحذر من ذلك فإننا سنقع في نفس المأزق وسنبقى في الدرك الأسفل من حيث درجة التقدم بمفهومه المادي البحت السائد الآن في الغرب، ونكون بذلك قد خسرنا خسارة مزدوجة –لا قدر الله– لا الله عبدنا ولا الحفل حضرنا كما يقال.

إن النتائج التي توصلت إليها التربية في الغرب والإنجازات التي حققتها في ميادين العلوم المختلفة لم تتحقق إلاّ على حساب كثير من المآسي الإنسانية التي تسبب فيها الاستعمار هنا وهناك في العالم الثالث عموما وفي العالم الإسلامي خصوصا، وهذه النتائج لم ترافقها مستويات مقبولة من التغير في العلاقات الاجتماعية الضرورية التي تفضي إلى تحسين طبيعة العلاقات بين البشر جميعا وتحمي الضعفاء منهم من غوائل إخوانهم في الإنسانية وتحجم عنهم مضار التطوير العلمي والتكنولوجي وما صاحبه من بطالة وفقر وتلوث وتفاوت طبقي صارخ وازدحام سكاني وغير ذلك.

هل يمكن لنا أن نتصل بالحضارة الغربية من خلال المناطق التي تتقطر فيها المعاني والقيم التي دافعت عنها دون المرور بمناطق تعفنها؟ أو أنه يتحتم علينا قبول كل ما فيها نظرا لصعوبة القدرة على الاختيار وعدم جدية الوقوف على ذلك؟ خاصة إذا علمنا أن هناك إرادة سيئة وراء التوجه نحو مناطق التعفن وحدها ومن ثم نلاحظ أننا قلما تطرق أسماعنا أزمات التربية في الغرب.

وخطورة ذلك عليه وعلى كل المقتدين به في الآجل والعاجل، وإذا طرقت هذه الأزمات أسماعنا بواسطة شبكات الإعلام المختلفة فإنها لا تثير أفئدتنا ولا تحرك

ضمائرنا من أجل التصدي للضياع الذي نحن سائرون بخطى سريعة للوقوع فيه، ضياع يوصلنا إلى طريق مسدود ليس له نهاية على جميع المستويات الاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية.

إن التسابق نحو تبني النماذج الغربية في التربية سيشوه كثيرا من النواحي الإيجابية في تراثنا ويهدم مؤسستنا الأصيلة مع عدم زرع ما هو أحسن منها مكانها ومن ثم لا نحصد إلاّ تلوثا اجتماعيا تربويا مدعما بوسائط إعلامية وإلكترونية يصعب معها إقامة حواجز التصدي والمناعة.

إن الأزمة التي تعاني منها منظومتنا التربوية لا نحلها بجلب أفواج من الخبراء الأجانب ولا الإسراف في استيراد الوسائل والتقنيات والطرائق المستحدثة هنا وهناك، ولكن ما يحلها حقّا –أو على الأقل يسهل ذلك– هو تحديد غايات التربية عندنا بوضوح وفلسفتها ومقاصدها وأهدافها، إن الغايات ينبغي أن تجيب بوضوح– مثلا– عن السؤال عن نوع الإنسان الذي نريد تكوينه.وما دور هذا الإنسان ومكانته في هذه العملية وما قيمته كعنصر في هذه المعادلة؟

إن الازدواجية في السلوك والانحراف عن أصالة المبادئ والقيم التي تتمتع بها أمتنا أصبح ينذر بشر مستطير قد يفضي إلى تدهور شامل وانحلال كامل ستختزل معه أدوار أمتنا إلى مستوى لا يسمح لنا بالمساهمة في أية نهضة أو قفزة إنسانية قادمة.

فالتربية السليمة المستوحاة من قيم الأمة ومثلها العليا وتطلعاتها ورسالتها الإنسانية ومصالحها المشروعة تعتبر شرطا أساسيا لتعزيز مكانتنا بين الأمم ولضمان الحياة الإنسانية الكريمة لأجيالنا الصاعدة.

وإذا كان تراثنا –كأي تراث إنساني آخر– لا يخلو من الشوائب والعيوب والنقائص فإن غربلته وتنقيته من أجل إزالة الصدأ عنه وتجلية نصاعته وصفائه كفيلة بإعادة الحياة إليه من جديد ودفعه ليتبوأ مكانة محترمة –إن لم تكن رائدة– بين سائر معروضات الشعوب والأمم ولكن لإقامة هذه الورشة –ورشة التنقية– لا بد من اختيار الأرضية وتهيئتها وإقامة مختلف التوازنات المادية والأدبية عليها والشروع في تجميد مختلف الاختلالات التي أصبحت تشكل أهم العوائق أمام الانطلاقة نحو الخلاص والانعتاق.

ويأتي على رأس هذه الأعمال تحديد كيفية التعامل مع التكنولوجيات الغربية والحد من استيرادها جاهزة من أجل الوصول إلى الحد على التركيز على المظاهر الخارجية للتنمية وما يرافق ذلك من التنافس على استهلاك السلع الكمالية دون الشروع في السير نحو مضمون حقيقي للتنمية تنبثق بمقتضاه ومفعوله مشروعات حيوية يساهم فيها كل أفراد الشعب كل حسب إمكانياته وقدراته لإنتاج تكنولوجية تكون وليدة حاجته وتفكيره وإنتاج حاجاته المادية يشعر بأهميتها وقيمتها ويدفعه ذلك إلى حسن استعمالها واستغلالها والمحافظة عليها دون الوقوع في النشاطات الطفيلية –كما هو سائد الآن– أو الركون إلى السلبية والجمود مع فقد القدرة على الإبداع والمبادرة ويرسخ نهائيا مظاهر التبعية للغير التي لا يمكن مع بقائها الخروج من أزمة التخلف إلى دائرة الفعل نحو التحرر والانعتاق.

إن معالجة مختلف الاختلالات المادية والمعنوية التي وقع فيها مجتمعنا بسبب المنحى الذي سلكته بلادنا منذ عقدين من الزمن في التنمية تعتبر أمرا ضروريا من

أجل تهيئة الأرضية للانطلاقة نحو استعاده مختلف التوازنات الكفيلة بضمان تحقيق حياة متوازنة اقتصاديا متكافلة اجتماعيا متماسكة أخلاقيا وتربويا.

إن مدرستنا اليوم تسبح في محيط ملوث أو جدته توجهات في التنمية لم تخضع لدراسة عميقة مسؤولة على النتائج المترتبة عنها، ولإزالة هذا التلوث الذي صنعه الترف والمترفون المتبجحون بمظاهر النعمة المزيفة لابد من العودة إلى الينابيع الصافية التي كانت ترتوي منها الأمة مع شرط إزالة الطحالب التي تعشعشت فيها بفعل أيام الهجر والجفاء وبفعل سنين الغفلة والاعتماد على زاد الغير وينابيعه والتي أصبح بفضل تبعيتنا لها في ذلك يساومنا على كل شيء، وحتى على الأشياء التي لا يمكن للإنسان أن يعيش بدونها.

وتأتي التربية الإسلامية الصحيحة ضمن مناهجنا الدراسية على رأس المقررات التي يعتمد عليها في تهيئة الإنسان الجزائري المؤهل لاستعادة مختلف التوازنات المذهبة لمختلف الإختلالات والموجدة للبيئة الناقية الصافية الملائمة للعمل القائم على التنافس الشريف بين الناس للفوز بمراتب الشرف في تحقيق ما تفتخر به الأمة من إنجازات مادية كانت أم معنوية.

أعلم بأن هناك من أبناء جلدتي من يقابل رأي برأي آخر يبعث على الملل من كثرة ما سمعناه وهو الحديث عن وسائل التعليم المختلفة هذه الوسائل التي أعلم بأنها أصبحت اليوم في البلدان المتقدمة متقدمة ومتطورة تطورا مذهلا إذ أنها بعدما كانت عبارة عن الرسوم والخرائط واللوحات والمخطوطات والسبورات وما أشبه ذلك زيادة عن الكتاب المدرسي احتلت اليوم الوسائل السمعية البصرية كالصور والأفلام والمسجلات والراديو والتلفزيون والوسائل المتطورة الأخرى كالحاسبات

الإلكترونية ومختبرات اللغات والتعليم المبرمج والتعليم السيبرناتي وغيرها مكانة هائلة في مناهج التعليم عند الغرب وانتقل بفضلها الحديث عن مفهوم تكنولوجيا التعليم بدلا من الحديث الذي كان سائدا في السابق والمتمثل في الحديث عن وسائل التعليم.

لا جدال في كون هذه التكنولوجيا التي انبعثت عن ثورة التواصل سيكون لها تأثير واسع وإيجابي–إذا ما أحسنا استعمالها– على مردودنا التربوي، ويمكن أن يكون ذلك مانحا قوة أكبر للتربية عندنا، ولكن ذلك يجب أن لا ينسينا أغراض تلك الدعاية الطويلة والعريضة لوسائل التعليم المتطورة من أجل توليد قناعة في نفوسنا لشراء هذه المستحدثات بدعوى تجديد الوسائل والطرائق وغيرها دون الأخذ بعين الاعتبار طبيعة التربية التي نقدمها لأبنائنا ودون التفكير في محتوياتها وأهدافها.

إن المنطق السليم يقتضي منا بأن نسخر التكنولوجيا وكل الوسائل الأخرى والطرائق لخدمة غايات التربية ومقاصدها وأهدافها، والمشكلة الأساسية التي يجب أن نحسم فيها هي قضية الغايات التربوية التي تطرح حولها كثير من الأسئلة هل نريد لأبنائنا أن يعيشوا في مجتمع إنساني تسخر التكنولوجية لخدمته أم نريد لم أن يعيشوا في مجتمع تكنولوجي تكون فيه الكلمة الأولى والآخرة للآلة؟ وبعبارة أوضح نقول هل يمكننا أن نتحدث عن الكيفية التي نتعلم بها دون أن نتفق على ماذا نتعلم؟وهل الاتفاق على ماذا نتعلم يغنينا عن طرح السؤال الجوهري الهام لماذا نتعلم؟

السكوت عن الإجابة الصريحة والمرتبة عن هذه الأسئلة سيعمق من أزمتنا وسيقودنا إلى الطريق المسدود كما وقع لنا في معركة التنمية التي كنا نتوهم فيها بأن امتلاكنا لمنتوجات المدنية الغربية كالسيارات والطائرات والجرارات ومختلف الآلات سيخرجنا من دائرة التخلف، ولكننا وجدنا أنفسنا مع مرور الزمن ندخل في دائرة مغلقة لا حيلة لنا للخروج منها، إذ قادنا هذا السلوك وهذا المنطق لنقف على إستحالتين يصعب معها مواصلة السير، استحالة منطقية تتمثل في عدم القدرة على بناء حضارة باستعمال الأشياء التي أنتجتها حضارة أخرى لأن المنطق يقول إذا كانت الأسباب تفضي إلى النتائج فإن هذه الأخيرة لا يمكن أن تخلق أسبابها، واستحالة اقتصادية لأن الإمكان المالي لأي مجتمع مهما كان عظيما لا يمكّن هذا المجتمع من القدرة على شراء كل ما ينتجه مجتمع آخر.

إن تركيز الإصلاح المزمع القيام به على وسائل التعليم تارة وعلى طرائقه تارة أخرى وتوجيه أصابع الاتهام أطوارا أخرى إلى بعض المقررات التي تتشكل منها مناهجنا الهدف منها تضليل الرأي العام وصرف نظره عن حقيقة المشكلات التربوية التي هي في الحقيقة والواقع بنات لواقع اجتماعي مرير وواقع اقتصادي مختل وواقع سياسي مغشوش.

إن المدرسة الجزائرية ينبغي أن تكون مكانا للإنماء الفردي والجماعي وليست مركزا للتهجير الثقافي والتهميش الاجتماعي، ومن ثم نستطيع أن نقول بأن التمسك بأسطورة نقل تجارب الغير سواء في المحتويات أو الوسائل والطرائق دون تمحيص،

ودون تحديد إستراتيجية التعامل معها ماهي إلا وسيلة لتضليل الأجيال وتعميق مأساتها، إن المجتمع الجزائري المسلم يستطيع بسهولة أن يوجد لنفسه بديلا تربويا صافيا من طينته ووطنيته تقيه من الوقوع في الأزمة الخلقية والاقتصادية التي تنهش الغرب حاليا وهنا لابد لنا في هذه الحال من العودة لنهتدي إلى التمسك بهويتنا تمسكا معتدلا، واعيا، مسؤولا يمكننا من التعامل مع الغير تعاملا صحيحا دون مركب نقص أو مركب استعلاء.

فهل يستحيل أن نكون لأنفسنا منظومة للتربية والتعليم تجمع خصائصها بين أفضل ما في التراث الوطني وأفضل ما أنتجته الخبرة العالمية بما في ذلك خبرة بلدان الغرب جميعها وبلدان الشرق كلها.

إن الأصلاء من هذه الأمة لا يرون أن كل ما يستورد رديء لمجرد أنه مستورد، ولا يرون كذلك أن كل شئ موجود في تراثنا حسن لمجرد أنه من تراثنا كلا ثم كلا...ولكن الاختيار من هنا أو من هناك يحدده المعيار المعتمد في تحديد نوع المجتمع الذي نسعى إلى تأسيسه ونتطلع إلى العيش في كنفه ونوع التربية التي تلائمه، ومن ثم ينبغي أن يكون الشغل الشاغل لنا جميعا وبإخلاص هو كيف نتمكن من إنشاء نمط من التربية يسير بنا في معارج التطور العلمي والتكنولوجي وفي معارج التقدم الديمقراطي الصحيح مع الاحتفاظ بالجوانب الإيجابية الثابتة في ثقافتنا وتراثنا؟ وما أكثرها.

وستبقى التربية الإسلامية والمكانة التي ستحتلها في مناهجنا التربوية أفضل طريقة للتصدي للغزو الثقافي الغربي السلبي مع القدرة على الاحتفاظ بإمكانية تأمين الاستفادة من تجارب الغير في كل ميادين الحياة المختلفة، ذلك لأن الإسلام بذاته كدين سماوي يبقى قادرا دوما على استيعاب كل ما هو إيجابي من تراث الإنسانية في كل زمان وفي كل مكان، بل، ويأمر بذلك دوما.

ولا يقذفن في روعك –أخي الكريم– أننا ندعو إلى ذلك تعصبا أو تحت تأثير عاطفة غير خاضعة لسلطان العقل، ولكن ندعو إلى ذلك مع الاعتماد على منطلقات أساسية ومن أهمها:

1– اعتبار الإسلام دعوة صريحة للإنسان ليشعر بقيمة ما أودعه الله تعالى فيه من قدرات عقلية وعلى وجوب توظيف هذه القدرات لدراسة عالم الطبيعة وفهمه واستغلاله. ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾[3].

2– ضرورة الفهم بأن الإنسان من منظور الإسلام مطالب بإعداد مستلزمات حياته وصياغة أشكالها وأنماطها بحيث تكون مساعدة لهذا الإنسان على توظيف قدراته العقلية لفهم عالم الطبيعة الذي خلقه الله تعالى وسخره للإنسان وطالبه بالبحث عن معرفته ليتوصل من خلال ذلك إلى معرفة حقيقة الخلق التي هي ضرورية للإيمان بالخالق.

3- وبناء على ذلك فلابد من التفريق بين الإسلام كشريعة خالدة صالحة لكل زمان ومكان وبين تراث المسلمين الذي شكلته مختلف تجاربهم في سائر الميادين في ومحالاتهم لفهم كتاب ربهم وسنة نبيهم وفقههما وفق ما تقتضيه بيئاتهم وعصورهم.

4- ولابد من غربلة هذا التراث وتمحيصه من أجل التمييز بين ما هو من الشريعة المنصوص عليه صراحة من حيث الدلالة والورود في القرآن والسنة وبين فقه الرجال لهذه النصوص وتفسيرهم لها، إذ أن الفقه الذي هو من استنباط المجتهد قد يعالج مشكلات المجتمع في زمن أو مكان بعلاج يمكن ألاّ يصلح لمشكلات زمان أو مكان آخر. فأحكام الشريعة صواب لا خطأ فيها بينما فهم الفقهاء لها قد يصيب، وقد يخطئ أحيانا.

5- التركيز على إبراز العلاقة الوطيدة بين التربية الإسلامية التي تدعو الإنسان إلى تحمل مسؤوليته تجاه نمط الحياة التي يختارها وما تدعو إليه التربية الحديثة حينما تكون بعيدة عن الألوان البيئية والتأثيرات المجتمعية من ضرورة شعور الإنسان بالقدرات العقلية التي يتمتع بها ومن وجوب توظيف هذه القدرات في فهم نفسه والطبيعة المحيطة به.

6- إبراز المفاهيم الصحيحة التي تتضمنها نصوص الشريعة الإسلامية (القرآن والسنة) والتركيز عليها عند صياغة مقررات التربية الإسلامية ضمن مناهجنا الدراسية وأعني بالمفاهيم الصحيحة خصوصا ما يلي:

أولا: أن الإسلام دين يقوم على مسؤولية الإنسان كاملة نحو نفسه ونحو ربه في كل أمر من أمور حياته وبلا وسيط بينه وبين خالقه﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾[4].

ثانيا: أنه جعل الإنسان في هذه المرتبة من المسؤولية بناء على ثقته الكاملة بقدرات الإنسان العقلية وعلى كفاءته للقيام بهذه المسؤولية﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾[5].

ثالثا: إنه ينظر إلى الإنسان على أنه كل متكامل ولا يفصل بين ما يسمى حياة الإنسان العقلية وحياة الإنسان الخلقية أو الوجدانية بل يربط بين كل ذلك ربطا عضويا متكاملا﴿وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ﴾[6].

رابعا: أنه –أي الإسلام– ينفي كل واسطة بين الإنسان وخالقه، فلا يملك أحد أن يجبر أحدا على عقيدة، كما أنه لا يملك أحد أن يغفر ذنبا أو يمنح ثوابا لأن ذلك كله مما اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون من اختصاصه كما كانت قضية

التحليل والتحريم، وأن كل مزايدة أو زيادة في هذا المجال تعتبر تحريفا للدين وتضليلا للناس يتحمل صاحبه تبعات ذلك في الدنيا وفي الآخرة، وقد عاب الإسلام على بعض أهل "الأديان" السابقة اتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله تعالى يقول الله ﷻ: ﴿إتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله﴾[7]، وقد استغرب الصحابة بعد سماعهم هذه الآية فقالوا:"يا رسول الله إنهم لا يعبدونهم، فقال ﷺ:"كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه، وإذا حرّموا عليهم شيئا حرّموه"[8].

خامسا: وبناء على ذلك فيتعين أن لا تكون مقررات التربية الإسلامية انعكاسا آليا لثنائية –يجوز– ولا يجوز –بالمفهوم الضيق للفتوى كما هو معمول به عادة، لأن الحلال بين والحرام بين، وبينهما أمور مشتبهات لا يخوض فيها إلاّ من هو أهل لذلك وينبغي أن يتعدى ذلك اجتهادات الأفراد مهما كانوا إلى عمل الجماعات المتخصصة والمجامع العلمية والفقهية التي يتعين عليها توجيه الفتوى نحو مقاصد الإسلام الأساسية وأهدافه البعيدة في إطار أصول الإسلام العامة ومبادئه الثابتة ﴿ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب﴾[9].

سادسا: إنه –أي الإسلام– نظام في المعرفة ونظام في تحديد المسؤوليات الشخصية يكتسبه الإنسان بتوظيفه الكامل لقدراته العقلية وباستخدامه لها استخداما كاملا ومن ثم فإن السلوك الذي يلتزمه الإنسان في حياته والاختيار الذي يقع عليه يكون

مسؤولا عنه وحده ﴿ وكل إنسان الزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ﴾[10].

سابعا: إنه دين لا يرثه الإنسان عن آبائه وأجداده لأن كل إنسان مطالب شرعا باكتشافه بنفسه ولنفسه وذلك عن طريق توظيف قدراته العقلة توظيفا كاملا، ويكتشفه من خلال معرفته بحقيقة العالم من حوله وهذه ميزة تميز الإسلام عن غيره من "الأديان" لأنه هو الذي يبين مكانة الإنسان وموقعه ودوره الشخصي في تحمل مسؤولية الدين ودرجة التدين مقارنة مع الدور الذي تمنحه له "الأديان" الأخرى.

ودور الأباء والمجتمع في الإسلام ما هو إلاّ بيئة مهيأة تساعد الإنسان على هذا التوجه نحو اكتشاف الحق بالحق، فلو كان الدين يورث لوّرثه نوح عليه السلام لابنه أو لامرأته "ونادى نوح ربه فقال: رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين، قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألني ما ليس لك به علم أن تكون من الجاهلين"[11].

﴿وضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط، كانتا عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئًا، وقيل ادخلا النار مع الداخلين﴾[12].

ثامنا: إنه يدعو الإنسان إلى استعمال منهج موضوعي، علمي يعتمد فيه على توظيف قدراته العقلية لاستغلال عالم الطبيعة أو ما يسميه الإسلام"عالم الشهادة" ليحصل على المعرفة اللازمة والضرورية للتحرر والتخلص من الشرك ومن الباطل ومن مختلف الأهواء

ويتوجه بنظرة سليمة واضحة إلى الحق بالحق ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت﴾[13].

تاسعا: أنه جعل من غاياته الأساسية الربط بين العرفة والتدين ربطا عضويا وبين للإنسان ما أودع الله فيه من قدرات ذاتية ووضح له ما لهذه القدرات من دور حاسم في حياته، ومن ثم ألحّ الإسلام على استقلالية الفرد وكلفه باستخدام كل القدرات العقلية التي يتمتع به وجعله مسؤولا على كيفية توظيفها، مسؤولية شخصية ومباشرة بينه وبين خالقه، وحتى الرسولﷺ ما كان عليه إلاّ إبلاغ ما تلقاه من ربه فلم يجعله الله على الناس حفيظا ولا وكيلا ولا مسيطرا﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾[14].

عاشرا: إنه –أي الإسلام– ينكر أن تتمثل الألوهية في أي نظام بشري، ألوهية تمنح لهذه المؤسسة أو تلك سلطانا على الإنسان وحياته، إذ المؤسسات التي يحتاج إليها البشر لتنظيم حياتهم تخضع لبصائر البشر أنفسهم واحتياجاتهم في ترجمة أصول الإسلام العامة التي تتمحور حول بناء الأنظمة والمؤسسات التي علاقات البشر ببعضهم وتحدد الأدوار والوظائف والتخصصات وإذا كان الإسلام في نصوصه الأساسية المتمثلة في القرآن والسنة قد حدد أوصافها ومقاييسها وأشار إلى بعض المعايير التي ينظر إليها فإن أشكالها وألوانها جعلها تخضع لاجتهادات الناس حسب تباين عصورهم وإختلاف أمصارهم وتعاقب أزمنتهم تنظم ﴿يا داوود إنا جعلناك خليفة في الأرض فأحكم بين الناس

بالحق ولا تتبع الهوى﴾[15]، ﴿وشاورهم في الأمر﴾[16]. ﴿ وأمرهم شورى بينهم﴾[17]. ﴿ وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾[18].

حادي عشر: إنه يقرر أن حقيقة الإنسان لا تبينها الفروق الظاهرة بين البشر والمتمثلة خاصة في العرق أو اللون أو الجنس أو اللغة، بل حقيقة الإنسان تتمثل في الصفات التي بينها القرآن الكريم والتي تتلخص في كونه قد سواه الله ونفخ فيه من روحه وجعل له السمع والبصر والفؤاد وعلمه الأسماء كلها كما علمه البيان ومكنه من توارث العلم بواسطة القراءة والكتابة وفطره على التوحيد وكلفه بعمارة الأرض وجعله خليفة له فوقها وما عدا ذلك من الصفات فهي عرضية لا يليق أن يكون لها شأن في دين الإنسان ولا في تربيته وقيمته ولا في معيار التمييز بين إنسان وإنسان ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر و أنثى و جعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[19].

ثاني عشر: إنه –أي الإسلام– بهذا التمييز بين الصلفات العرضية "اللون الجنس واللسان والعرق" والصفات التي تدل على حقيقة الإنسان يؤكد عالمية الإنسان ويقرر بأن أي نظام آخر في الحياة أو أي دين –مهما كان هذا الدين– يتخذ من هذه الصفات العرضية أساسا أو مقياسا في فصل البشر عن بعضهم البعض كان هذا النظام أو هذا الدين دينا باطلا ينكر حقيقة الإنسان ويمسخ عالمية هذه الحقيقة كما تفعل الأديان التي تقوم على المعاني والأفكار المتناقضة مع هذه العالمية أو الأفكار التي تنقص من منزلة

المسؤولية التي وضع الله فيها كل إنسان ﴿اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم﴾[20].

ثالث عشر: إن بناء الدين في الإسلام على أساس المسؤولية الفردية يعتبر تكريما عظيما للإنسان، ومن ثم فإن نصوص الإسلام الأساسية (القرآن والسنة) وضعت الإنسان في نظام معرفي وخلقي يضمن له أقصى درجة من النمو العقلي، ومن النمو الخلقي أو الوحداني، والتربية في أسمى معانيها وأنبل أهدافها وأعمق مراميها –حينما تكون بعيدة عن الألوان البيئية والآثار المجتمعية ماهي في نهاية المطاف إلاّ إشعار الإنسان بقيمة ما فيه من قدرات ومن ضرورة العمل على توظيفها في حياته إلى أقصى درجة ممكنة، ومن توظيفها في اكتشاف عالم الطبيعة ومعرفته، ليقود الإنسان نفسه للوقوف على حقائق الخلق وعلى الإيمان بالخالق، ومن ثم يتوصل إلى بناء منظومة القيم الخلقية التي تتركز على عالمية الإنسان القابلة للتطور الدائم والتحسن المستمر ليفوز الإنسان في النهاية بإقامة الفضيلة وعالم تسوده العدالة والحرية.

﴿يا بني أدام إمّا يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فمن أتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾[21]، تلك إذن بعض المعاني والمفاهيم التي أقترحها لتكون محل اهتمام وتركيز عند الشروع في تصور المنهاج وتسطير أهداف التربية الإسلامية والعلوم الإسلامية وتحديد محتوياته.

وهنا لابد من توضيح يرفع كل لبس قد يحيط بلفظ "منهاج".

المعروف في الأدبيات التربوية الحديثة والمعاصرة أن مفهوم "المنهاج" "CURRICULUM" يدل اصطلاحا على النسق التعليمي الشامل ومن ثم يجب أن يتضمن المخطط السياسي الموضح للغايات التربوية والمخطط الإداري التسييري المحدد للإغراض والمقاصد والمخطط التربوي المترجم للأهداف التي تسعى للوصول إليها في خلال مراحل التعليم المختلفة، وبهذا المفهوم نحن مدعوون اليوم أكثر من أي وقت مضى لتجاوز المفهوم التقليدي للبرنامج الدراسي الذي ينحصر في قائمة الموضوعات الدراسية المقررة والمرفقة عادة بتوجيهات تربوية كثيرا ما تبدو منفصلة عنها.

ولابد إذن من تعويض هذا المفهوم بمفهوم منهاج أي نسق تعليمي متكامل تؤدي مختلف عناصره النظرية والتربوية وظائف وأدوار مترابطة ومتفاعلة في تناسق وتوازن وتنظيم وفقا لتسلسل منطقي متماسك .

أنّ أي منهاج دراسي بمفهومه التقليدي الضيق هو تحويل لمعارف معينة إلى مادة مدرسية بغرض إحداث تحويل في فكر المتعلم المستهدف وسلوكه وفقا لملامح الدخول والخروج التي تحددها أغراض المرحلة التعليمية التي ينتمي إليها ووفقا لطبيعة المادة المعرفية المقصودة.

غير أن هذين العنصرين (المتعلم –المعرفة) يملكان قبل تحويلهما تحويلا مؤسسيا مدرسيا خصائص وملامح ذاتية لابد من مراعاتها وأخذها بعين الاعتبار عند تصور المنهاج الدراسي واختيار مكوناته ومضامينه وتحديد أهدافه.

ولما كان المنهاج الدراسي في مدارسنا الخاص بالتربية الإسلامية والعلوم الشرعية تحويلا لما أنتجه المسلمون في مختلف المواد والنشاطات والتخصصات كالتفسير

والحديث، الفقه والأصول والمقاصد والنظم وغيرها إلى مادة تعليمية تكوينية تستهدف تكوين تلميذ أو طالب جزائري له ملامح قبلية يتصف بها ومنها خاصة أنه نتاج لتنشئة اجتماعية ودينية لا تزال مستمرة وتتسم خاصة بالطابع المركب العريق للحضارة الإسلامية بكل مظاهرها الثقافية، فإن بناء هذا المنهاج لابد أن ينطلق أولا من خصائص هذا التراث العظيم ومن الملامح القبلية والبعدية للإنسان الذي ينوى تكوينه حتى يتضح لنا التصور المتحكم في بنائه واختياراته.

ومن ثم فإن ملامح التلميذ أو المتخرج من المدرسة الجزائرية المسلمة بعد مراحل التعليم المتعاقبة يتوقع أن تكون كما يلي:

في مجال الاتصال: يتوقع من الطالب المتخرج في المدرسة الجزائرية عند نهاية مراحل التعليم المختلفة أن يكون:

1- متمتعا بالملاحظة الدقيقة.

2- متميزا بحسن آراء الآخرين وقادرا على محاورتهم عند معرفة ووعي كاملين.

3- قادرا على عرض أفكاره عرضا منظما ومتسلسلا ويوجهها توجيها مناسبا.

4- قادرا على مخاطبة غيره بأدلة مقنعة وعلى عرض المواقف المؤثرة.

5- متمكنا من استعمال المراجع والمعاجم.

6- قادرا على التعبير اللغة العربية تعبيرا سليما كتابة ومشافهة.

في المجال المعرفي: يتوقع منه ما يلي:

1- أن يعي العلاقة بين الإنسان وخالقه وبينه وبين الكون والحياة التي يعتبر الإنسان فيها مخلوقا مكرما وقد سخر له الكون ومكن من الحياة من أجل الحركة والعمل.

2- أن يعلم النشأة الأولى السوية للإنسان وأن يدرك استخلاف اللهﷻ له في الأرض ليقوم بعمارتها وفق المنهج الإلهي الذي فطر عليه الإنسان.

3- أن يكون قادرا على توظيف الأدلة العقلية والنقلية لتوليد القناعة بصحة العقيدة الإسلامية في نفسه وتبليغها لغيره.

4- أن يتبين عموم رسالة سيدنا محمد ﷺ ويدرك شمولها لجميع جوانب الحياة.

5- أن يدرك تلازم العقيدة والشريعة وتكاملهما.

6- أن يكون عارفا بالأحكام الشريعة وقادرا على ربطها بواقع الناس المعيشي.

7- أن يعرف القيم التي يؤسس عليها المجتمع المسلم كالأخوة والتعاون والتضامن والعدل.

8- أن يعرف خصائص العقيدة الإسلامية المتمثلة في البساطة والوسطية والتسامح.

9- أن يعرف خصائص الشريعة الإسلامية كالربانية والشمولية والواقعية واليسر ورفع الحرج.

10- أن يكون قادرا على التمييز بين أحكام الشريعة الثابتة بنصوص ثابتة في ورودها وقطعية في دلالتها والآراء الفقهية الاجتهادية التي أفتى بها الفقهاء مراعاة لظروف الزمان والمكان اللذين كانوا يعيشون فيهما.

11- أن يكون قادرا على دحض الشبهات التي يحاول أعداء العقيدة الإسلامية بثها ويكون كذلك عارفا بالأدلة العلمية التي تبين بطلانها.

في المجال العقلي: يتوقع منه ما يلي:

1- أن يعتمد على عقله الواعي في نبذ الخرافات التي تعترضه وكل أنواع الأوهام والشعوذة.

2- أن يتصف بالموضوعية في حواره مع الآخرين بعيدا عن الهوى والتعصب الأعمى.

3- أن يبتعد عن اللغو في الدين والتشدد في إصدار الأحكام مع نفسه وغيره.

4- أن يعتمد على الحجة المقنعة المستندة على الدليل الشرعي والعقلي عندما يصدر الأحكام حول القضايا التي يشارك في معالجتها.

5- أن يجتهد للتعرف على مناهج الفقهاء المسلمين في حل المشكلات التي تعترضهم ويستفيد منها في حياته العملية والعلمية.

6- أن يكون محبا للبحث في التاريخ لفهم أحداثه و تحليلها واستنتاج الدروس والعبر والمواعظ منها.

7- أن يفهم سيرة الأمم السابقة وذلك بمعرفة على عوامل ازدهارها وأسباب هلاكها وفنائها لمعرفة سنن الله في التاريخ والاجتماع والحضارة.

8- أن يدرس ويفهم الظواهر النفسية والاجتماعية والاقتصادية التي نزل القرآن الكريم ليعالجها مع القدرة على ملاحظة أسبابها وإمكانية تكرارها في كل

وقت وأوان ودوام صلاحية علاج القرآن الكريم لها باعتباره علاجا أزليا لمستحدثات البشر ومشكلاتهم.

9- أن يكون قادرا على ممارسة عمليات التمييز والاستنتاج والمقارنة والتحليل

والترتيب والتقويم عندما يتناول الموضوعات والقضايا الاجتماعية وفق أحكام الشريعة.

10- أن يتحلى بأخلاقيات أدب الاختلاف التي تمثل السمو والرفعة والتسامح وحسن تقدير آراء الآخرين والاستفادة منها (رأي صحيح يحتمل الخطأ)و رأي غير خطأ يحتمل الصواب).

في المجال العاطفي: يتوقع منه في هذا المجال أن يكون:

1- أن يجعل ولاءه لله ﷻ ولرسوله ﷺ.

2- أن يقبل على عبادة الله ﷻ مخلصا.

3- أن يعرف عظمة نعم الله عليه فيقوم على شكره قولا وعملا.

4- أن يكون معتدلا في مأكله وشربه.

5- أن يقنع بما وهبه الله إياه ويستغني به عما في يد غيره.

6- أن يبتعد على المحرمات في مأكله ومشربه وكل أفعاله وتصرفاته.

7- أن يحافظ على صحة سلامته فيأخذ بأسباب الوقاية ويبتعد عن كل ما يضر بصحة جسمه.

8- أن يكون قدوة لغيره في سلوكه وفي تصرفاته.

9- أن يتواضع للناس في غير ذل وأن يصدع بالحق بغير عجرفة وغطرسة ومزايدة.

10- أن يكون متصفا بمحبة غيره شغوفا بتوجيه نحو الفضيلة وإبعاد عن الرذيلة.

تلك إذن بعض الملامح في مختلف المجالات التي نرجو أن يكون المتخرج من مدرستنا يتمتع بها، ويكون بذلك متمسكا بأصالته متفتحا -لا منفتحا- على غيره، عاملا

لدنياه كأنه يعيش أبدا ومستعدا لآخرته كأنه يموت غدا، على أي حال، سنعود للموضوع ... إن شاء ربنا.

الهوامش

1- سورة العنكبوت، الآية.20
2- سورة يونس، الآية.101
3- سورة العلق، الآية.1
4- سورة المدثر، الآية .38
5- سورة البقرة، الآية.30
6- سورة القصص، الآية.77
7- سورة التوبة، الآية.31
8- رواه الترميذي والبيهقى.
9- سورة النحل، الآية.116
10- سورة الإسراء، الآية13-.14
11- سورة هود، الآية 45-.146
12- سورة التحريم، الآية.10
13- سورة الغاشية، الآية.17
14- سورة البقرة، الآية .256
15- سورة ص، الآية.26
16- سورة آل عمران، الآية.159
17- سورة الشورى، الآية.38
18- سورة النساء، الآية.58
19- سورة الحجرات، الآية.13
20- سورة العلق، الآية.3
21- سورة الأعراف، الآية35.